منهجَة المسعودي و إسهاماته في الجغرافية و التاريخ
(912 - 959 م)

د. أحمد حسن الرحيم
مركز البحوث التربوية و النفسية
جامعة بغداد

المقدمة

للشعب العربي ولع عميق و ميل شديد إلى الأسفار و الإنتقال من بلد إلى آخر ، لا تثنيهم عن ذلك صحارى واسعة و لابحار شاسعة أو مشاق عنيفة . و قد توارثوا هذا الميل منذ زمن قديم فأوغلوا في قارة آسيا و أفريقيا و أوربا وغيرها . و شقت سفنهم الخليج العربي و المحيط الهندي و البحر المتوسط و بحار اخرى . و لعل هذا الميل إلى الأسفار و الولع بالاغتراب قد عبَّر عن نفسه بصورة أدبية في قصص السندباد و بصورة فعلية برحلة إبن جبير و رحلة إبن بطوطة و بكتب كثيرة في التاريخ و الجغرافية ما تزال تعد مراجع علمية في هذا الموضوع .

الجغرافية عند العرب

إن لفظ(جغرافيا)ليس لفظا عربيا بل هو معَّرب ، و إن أصله مكون من لفظين يونانيين هما (جيو) و (كرافيا) و معناهما وصف أو صورة الأرض [1] ، ولكن العرب عرفوا علم(الجغرافية)و درسوا مضمونه فجابوا البلاد و درسوا أقسامها و طبيعتها و طرقها و تغيراتها و سكانها و حاصلاتها و غير ذلك قبل أن يصلهم هذا المصطلح الأجنبي الذي وضعه بطليموس عنوانا لأحد كتبه .

أما سبب شغف العرب بالأسفار و الترحال فهو ان العرب شعب تجاري ينقل يضاعته من بلد إلى آخر فهو ينتقل بين الحبشة و الهند و الشام و مصر و بلاد اليونان و الأفغان و القوقاس و عدد من البلاد الأسيوية و الإفريقية و الأوربية . ومن كان على هذه الشاكلة فلا بد له من معرفة الطرق الموصلة إليها و ما يلاقي من الأنهار و الغابات و الجبال و الصحارى والشعوب المختلفة ، و أن يتعرف على لغاتها و طباعها و أديانها و رغباتها و إنتاجاتها . و ربما يكون هذا السبب الرئيس الذي حثَّ العرب على دراسة البلدان و تفَّهم أحوالها و طبائع أهلها . إضافة إلى ان التاريخ الإنساني بما فيه من تقدم و علوم و حروب و تجارة و فنون لايمكن ان يُفهم فهما صحيحا ما لم تُعرف طبيعته البيئية التي تحتضن تلك الحضارة بنواحيها كافة .وعند مجيء الإسلام و جعله نشرالدين بين الأمم واجبا ملزما زاد سببا وجيها في رغبة المسلمين لدراسة

الأمصار و الأقطار ، و لذلك صار على الجند الفاتحين و قادتهم ، بصورة خاصة ، معرفة البلاد التي يتوجهون إليها وهو أمر ضروري لإدارة القتال إذ لايمكن لقائد ان يقاتل قتال تفوق و إنتصار و هو لا يعلم شيئا عن طبيعة الأرض التي يتحرك عليها ولا يعرف مداخلها و مخارجها و ليس له علم بأحوال السكان وتشكيلاتهم الإجتماعية و السياسية و الدينية و مواردهم الإقتصادية وهي بمجموعها تشكل علم الجغرافية و يسمى بالجغرافية الطبيعية و السياسية والإجتماعية و غيرها .

و أضاف الإسلام سببا آخر دعى إلى الأسفار هو الحج فالمسلمون الذين يسكنون بلادا بعيدة مثل جنوب أفريقيا و بلاد المغرب و القوقاس يحتاجون بالضرورة إلى معرفة واسعة بالطرق التي يسلكونها و الشعوب التي يجتازون أراضيها و كيفية التعامل معهم و أساليبهم التجاريةو عملتهم النقدية لتسيير امورهم أثناء السفر وهكذا كان يفعل إبن بطوطة في كل بلد يصل إليها إ ذ كان يتاجر طيلة سني رحلته التي بلغت زهاء تسع و عشرين سنة .

كما إن الرحلة في طلب العلم و الرزق دعت كذلك إلى السفر فقد سافر كثير من المسلمين إلى البلاد النائية طلبا للعلم و عملا بالحديث الشريف " إطلب العلم من المهد إلى اللحد " ، خاصة حين كانت البلاد الإسلامية بلدا واحدا واسع الأرجاء و كانت بعض المدن العربية و لاسيما بغداد و القاهرة و قرطبة مقصدا لطلبة العلم .

ان كلمة جغرافية ظهرت لاول مرة في مؤلَفٍ لعالم يوناني هو بطليموس حسب ما تعلمه في زمانه و ذكر فيه أسماء مدن و جبال و شعوب و تمت ترجمته إلى العربية في العصر العباسي و فيه دخلت كلمة جغرافية في المفردات العربية ، إضافة إلى ترجمة كتاب آخر له من وضعه في الفلك وهو (المجسطي) . لكن العرب عرفوا علم الجغرافية قبل ترجمة كتاب بطليموس بزمن بعيد و لاسيما الفينيقيون إذ كانوا روَاد البر و البحر .

من قدماء الجغرافيين العرب أبو زيد أحمد بن سهيل البلخي المتوفى سنة 322هـ مؤلف كتاب (صور الأقاليم) لكن كتابه فُقد . و جاء بعده الإصطخري نسبة إلى مدينةإصطخر في إيران ، و عاش في القرن الرابع الهجري أيضا و ألف كتابا في الجغرافية سماه(المسالك و الممالك) ، وهو من المؤلفات الشائعة و المعروفة و إن إعتمد كثيرا على كتاب البلخي الذي كان موجودا في زمنه [2] ، إلا أنه سافر و شاهد بنفسه الأحوال و الأقطار التي ذكرها البلخي .

أشار جرجي زيدان إلى أن الإصطخري قسَّم البلاد الإسلامية إلى عشرين جزءا كما فعل البلخي إبتداءا من بلاد العرب إلى بلاد ما وراء النهر (تركستان) و وصف كل بلد من حيث أنهاره و طبيعة أرضه و تجارة أهله و صناعاتهم [3] ، ثم ظهر إبن حوقل المتوفى في سنة 977هـ و ألف كتاب (المسالك و الممالك) ، و كان رحالة أيضا قطع المسالك لمشاهدة ما جاء في كتابه الذي يمتاز بأنه موضح بالخرائط و الرسوم للمدن و الأنهار و الجبال و الجزر و قد إعتمد في وضعه على ما كتبه الإصطخري من قبله .

المسعودي

جاء بعد هؤلاءبعض الجغرافيين كان من أشهرهم على الإطلاق علي بن الحسين الهذلي المعروف بالمسعودي نسبة إلى جده الأعلى الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود أحد أصحاب قراءات القرآن الكريم السبع .

و المسعودي مؤرخ و جغرافي أدرك العلاقة بين التأريخ و الجغرافية و ضرورة فهم التأريخ نظرا لعلاقته بالمكان . و يرى جرجي زيدان أن المسعودي أول من إستخدم مصطلح (جغرافية) في كتاباته من الجغرافيين العرب ، فقد عرَّفها في مؤلفه(التنبيه و الاشراف) بأنها (قطع الأرض)[4] ، أما إخوان الصفاء فقد عرَّفوا هذا المصطلح بأنه (صورة الأرض) .

و يلاحظ ان هؤلاء الجغرافيين ، الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري وهو قرن الزخم الحضاري في الدولة العربية الإسلامية ، رغم انهم ألحقوا مؤلفاتهم بخرائط توضيحية رسموها بأنفسهم الا انها فقدت أو ربما ضاعت أو تلفت بفعل الزمن و كان لبعضها ألوان خاصة للأنهار و الجبال و البحار.

و مما يلفت النظر ان إبن خلدون ، وهو الناقد البارع ذو الملاحظات النافذة قد اعجب بمؤلفات المسعودي بصورة عامة وإن وجه إلى بعضها بعضا من النقد و عرَّف (التأريخ) بأنه " ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل ". وقال عن ما يسمى الآن بعلم الجغرافية البشرية أو فرع منها حيث ذكر " أما ذكر الأحوال العامة للآفاق و الأجبال و الاعصار فهو أُسْ للمؤرخ يبني عليه أكثر مقاصده و تتبين به أخباره . و قد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعل المسعودي في كتاب(مروج الذهب) الذي شرح فيه أحوال الأمم و الآفاق لعهده في عصر الثلاثين و الثلثمائة غربا وشرقا و ذكر نِحَلِهِمْ و عوائدهم و وصف البلدان و الجبال و الممالك و الدول و فرَق شعوب العرب و العجم فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه و أصلا يعولون عليه في تحقيق الكثير من أخبارهم[5] " .

تراث المسعودي

ما موجود الآن من تراث المسعودي كتابان هما (مروج الذهب و معادن الجوهر) و يطبع عادة بأربعة أجزاء تزيد صفحاتها على (1600 صفحة) عدا الفهارس المتعددة . و الكتاب الثاني هو (التنبيه و الأشراف) ، و كلاهما في التأريخ العام و أحوال الأمم و البلاد ، و بينهما عناوين مشتركة و لكن المسعودي قدَم في كل منهما معلومات مختلفة و إن كان العنوان واحدا أو متقاربا.و هذه ميزة تستحق التقدير و تدل على غزارة التحصيل و سعة الافق الثقافي . وقد طبع الكتابين مرات عديدة و ترجما الى عدد من اللغات .

من كتب المسعودي المفقودة كتاب(أخبار الزمان و من أباده الحدثان من الامم الماضية و الأجيال الخالية و الممالك الدائرة) ، أشار إليه المسعودي في كتابيه السابقين . و

يقال انه كتاب واسع يقع في ثلاثين مجلدا ، و لم يبق منه إلا جزء واحد في مكتبتي فينا و باريس وقد تم طبعه لأهميته .
ومن مؤلفاته الأخرى (كتاب الأوسط) و يتناول التأريخ العام ، يستشف من عنوانه انه ذو مادة معتدلة من حيث المادة و الحجم ، و تحتفظ مكتبة آيا صوفيا بقسم منه لكن نهايته مفقودة أو ناقصة وهو من مخطوطات القرن التاسع .
وقد ذكر عبد الرحمن حسين العزاوي (34 كتابا و رسالة) للمسعودي [6] لكنها مفقودة و لانعرف عنها غير اسمائها كان المسعودي قد أشار إليها في كتابيه من بينها :
(الإستذكار لما جرى في سالف الاعصار) و (كتاب الرسائل) و (ذخائر العلوم و ما كان في سالف الدهور) و (الصفوة في الإمامة) .
كان المسعودي يخشى على كتبه من الإنتحال أو التغيير أو التحريف و لذلك حذر و أنذر من يقدم على ذلك بغضب من ألله و نقمته ، كما إعتذر لمن يجد في كتبه سهوا أو خطأ أصله أو سببه الغفلة البشرية و عناء الأسفار و عجز الإنسان عن الإحاطة بكل علم وفن . و ينفي كذلك عن نفسه التعصب و التحيز على الرغم من ان القرن الذي عاش فيه كان مستعرا بالنقاشات المذهبية و القومية و الدينيةفقال :" و ليعلم من نظر فيه(مروج الذهب) اني لم أنتصر فيه لمذهب و لا تحيزت إلى قول و لا حكيت عن الناس إلا مجالس أخبارهم و لا أعرض لغير ذلك[7] .

منهجه في البحث العلمي

أظهر المسعودي في كتابيه اللذين وصلا إلينا إطلاعا واسعاو ثقافة عميقة و معرفة غزيرة في العلوم العربية وا لإسلامية و غير العربية ، فهو فقيه و متكلم ومحدِث و أديب و رحالة إلى جانب إهتمامه الاساس بالتأريخ و الجغرافية و الفلك ، و له إسلوب معبِر مكنه من البيان السلس ، كما إتبع منهجا خاصا في التأليف التأريخي و الجغرافي يمكن إجمال خصائصه في ما يأتي :

1- تحديد الهدف

لايكتب في علم ما لم يجد سببا وجيها يدعوه إلى ذلك ، فما دعاه إلى الكتابة في التأريخ أنه وجد بعض المؤرخين يقتصرون في مؤلفاتهم على موضوع واحد في الغالب فأراد من جانبه وضع كتب شاملة تبحث في أحداث التأريخ بصورة واسعة محيطة . و رأى أيضا ان المؤرخين بجانب إقتصارهم على موضوع واحد فإنهم يذكرونه مختصرا فيجمعون بين الفردية في الموضوع و الإختصار في المادة . و قد يذكرون ما لا تدعو إليه الحاجة . و لذلك تجنب (المسعودي) هذه المثالب و قال ان من أسباب تأليف كتبه حسن إختياره لما إطلع عليه من مؤلفات غيره . و قال عن كتابه (مروج الذهب و معادن الجوهر) :" قد وسمت كتابي هذا بـ (مروج الذهب و معادن الجوهر) لنفاسة ما إحتواه و عظم ما إستولى عليه من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه و غزر مؤلفاتنا في مغزاه و جعلته تحفة للأشراف من الملوك و أهل الدرايات لما قد

ضمنته من جمل ما تدعو إليه الحاجة و تنازع النفوس إلى علمه من دراية ما سلف و غبر في الزمان و جعلته منبها على اغراض ما سلف من كتبنا و مشتملا على جوامع سميرب بالأديب العاقل معرفتها و لا يعذر في التغافل عنها و لم نترك نوعا من العلوم و لا فنا من الأخبار و لا طريقة من الآثار إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات أو لوحنا إليه بفحوى من العبارات "[8] .

أوضح المسعودي هدفه في التأليف حين يذكر الأسباب التي دفعته إلى وضع كتابه المعروف (مروج الذهب و معادن الجوهر) وهو كتاب يجمع بين المادتين التأريخية و الجغرافية وإن كانت النصوص التأريخية أوسع و أشمل .وبيَن أيضا أنه يريد من تأليفه أن يكون الكتاب شاملا لمعارف متعددة ولا يقتصر على مادة واحدة أو موضوع واحد ، و أن تكون المادة وافية تغني بما يحتاج إليه القارىء ، و إذا تعذر عليه الأمر فأنه يهدي القارىء إلى كتب اخرى و لا ينسى تسجيل إعتذاره لضيق المجال .

إن المعلومات التي يقدمها المسعودي ليست أخبارا ترفيهية لقضاء الوقت بل هي ثقافة ضرورية لايُعذر من يتغافل عنها وقد قال إن هذه المعلومات جُمعت للأشراف من الملوك و أهل الدرايات ثم عدل عن هذا الرأي وبيَن انها مما " يُحسن بالأديب العاقل معرفتها ولا يُعذر في التغافل عنها". وقد وسع مؤلفه (مروج الذهب و معادن الجوهر)حتى زاد على 1600 صفحة و إستغرق في وضعه أربع سنوات .

2- جمع المصادر و الكتب الضرورية

بعد تحديد الهدف و بيان الأسباب الموجبة للتأليف و بذل الجهد المضني يوجه المسعودي جُل إمتنانه و ثنائه للخالق العظيم الذي لايضيع أجر من أحسن عملا ، و يعقب ذلك ذكر الكتب التي إعتمد عليها و أسماء مؤلفيها فبدأ بوهب بن منبه و أبي مخنف لوط بن يحيى العامري و محمد بن إسحاق و الواقدي و إبن الكلبي و أبي عبيدة معمر بن المثنى و يسترسل في ذكرهم حتى يصل إلى عصره وهو عصر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310هـ فذكر كتابه و أثنى عليه ثناءً عطرا قئلا :" أما تأريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات و الرائد على الكتب المصنفات فقد جمع أنواع الأخبار و حوى فنون الآثار و إشتمل على صنوف العلم وهو كتاب تكثر فائدته و تنفع عائدته و كيف لا يكون كذلك و مؤلفه فقيه عصره و ناسك دهره إليه إنتهت علوم فقهاء الأمصار و حملة السنن و الآثار " . و يذكر المسعودي أيضا كتاب إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي النحوي الملقب بنفطويه و إمتدح تأليفه و تصنيفه . وأثنى على كتاب محمد بن يحيى الصولي في أخبار بني امية و خلفاء بني العباس . و كذلك ذكر علي بن الحسن المعروف بإبن الماشطة و كتابه (الوزراء و أخبارهم). و كان آخر من ذُكر من المؤلفين و إستفاد من مادتهم إستفادة كلية أو جزئية محمد بن يزيد بن أبي الأزهر و عنوان كتابه(الهرج و الأحداث) .

أشار عبدالرحمن العزاوي إلى المؤلفين الذين ذكرهم المسعودي عند كتابته عن الدولة العباسية و قال ان عددهم وصل إلى ثلاثة و ثمانين مؤلفا[9] ، وبلغ عدد الشعراء الذين

إستشهد بشعرهم عند تدوينه لعصر بني العباس ثمانية وعشرين شاعرا . ونجد في كل عصر أو موضوع يكتبه المسعودي مصادرلمعلوماته و قد نجد أشعارا أو شواهد غير عربية . و من مصادره المهمة عن عصر ما قبل الإسلام التوراة و الإنجيل و القرآن الكريم و كتب الحديث .
إن إطلاع المسعودي على مؤلفات متعددة الإختصاصات أكسبه دراية واسعة بعلوم مختلفة و جعل مادته تمتاز بقيمة عظيمة ، و لكن يجب القول ان بعضا من مادته و لاسيما ما أخذه عن وهب بن منبه و كعب الأحبار و هي المادة التأريخية الخاصة بنشوء العالم و أنبياء بني إسرائيل و المعروفة بالإسرائيليات فيها مجال واسع للشك و الطعن لمناقضة كثير منها للمنطق السليم و ما هو معروف عن طبيعة الإنسان و مجتمعه .

3- التأكيد على الإختصاص

من وجهة نظر المسعودي أن يكون المؤلف مختصا بمادته منقطعا إلى طلبها و متوجها بكليته إليها و إذا ما خرج عن هذا الإطار دخل في متاهة لا يؤمن عليه منها الزلل . و لهذا فقد إنتقد المسعودي سنان بن ثابت بن قرة الحراني و كان طبيبا معروفا إلى جانب إشتغاله بالرياضيات و الفلك ، وما عده المسعودي مأخذا شائنا هو ان سنانا ألف كتابا لبعض إخوانه ذكر في أوله معلومات اخذها عن افلاطون حول طبيعة النفس البشرية و أقسامها الثلاثة الناطقة و الغضبة و الشهوانية إضافة إلى بعض من نظرية افلاطون في السياسة المدنية أو المبادىء السياسية في جمهورية افلاطون حيث يلزم الملك و الوزراء الأخذ بها ، وهي أسس لم يجربها سنان لكنه يؤمن بها و بصحة وجاهتها و لكن من وجهة نظرية . و تطرق سنان كذلك إلى أخبار الخليفة المعتضد و ذكر صحبته إياه و شيئا عن ذكرياته عنه كما تطرق إلى الخلفاء الذين أتوا من بعده . و عدَّ المسعودي ذكر الخلفاء وحدهم أمرا مخالفا لتقاليد ذوي الأخبار و خارج عن جملة " أهل التأليف" . و لم يعب المسعودي كتاب سنان هذا من حيث القيمة العلمية أو الجودة في التأليف و لكنه عاب عليه أنه خرج في تأليفه عن دائرة إختصاصه الطبي و الرياضي و الفلكي فقال " وهو وإن أحسن فيه و لم يخرجه عن معانيه فإنما عيبه انه خرج عن مركز صناعته و تكلف ما ليس من مهنته و لو أقبل على علمه الذي إنفرد به من علم اقليدس و المقطعات و المجسطي و المدورات و لو إستنتج آراء سقراط و افلاطون و ارسطوطاليس فأخبر عن الأشياء الفلكية و الآثار العلوية و المزاجات الطبيعية و النسب و التأليفات ... و غير ذلك من أنواع الفلسفة لكان قد سلم مما تكلفه و أتى بما هو أليق بصنعته "[10] .

و من الجدير بالقول ان المسعودي وهو المؤرخ الجغرافي قد أخذ كثيرا من كتب الفلاسفة اليونان مثل كتاب (الجغرافية) و (المجسطي) لبطليموس مشيرا إلى ذلك . و يبدو انه يعد هذا الأمر يقع ضمن إختصاصه .

تقدم رأي جرجي زيد\ان ان المسعودي أول من إستخدم كلمة (جغرافية) في المؤلفات العربية ليدل بها على كتاب معين لهذات المؤلف ثم إستخدم المسلمون كلمة(جغرافية) من بعده لتدل على كل ما يبحث في طبيعة الأرض و البلدان و النبات و الحيوان و هي في بيئتها الخاصة فأصبحت كلمة(جغرافية) مصطلحا لهذا العلم المعروف . كما أخذ المسعودي من كتاب(المجسطي) لبطليموس في الفلك لكنه حين يذكر شيئا لا يعلم حقيقته يرويه رواية متنصل من عهدته و خارج عن مسؤوليته . و مثال ذلك قوله " و قد زعم بطليموس صاحب كتاب المجسطي ان إستدارة الأرض كلها جبالها و بحارها أربعة و عشرون ألف ميل و ان قطرها وهو عرضها و عمقها سبعة آلاف و ستمائة و ستة و ثلاثون ميلا [11]" . و هذا يختلف عن قوله :" وقد ذكر بطليموس في الكتاب المعروف ب (جغرافيا) صفة الأرض و مدنها و جبالها و ما فيها من البحار و الجزائر و الأنهار و العيون و وصف المدن المسكونة و المواضع العامرة و ان عددها أربعة آلاف وخمسمائة و ثلاثون مدينة في عصره و سماها مدينة مدينة في إقليم إقليم و ذكر في هذا الكتاب ألوان جبال الدنيا من الحمرة و الصفرة و الخضرة و غير ذلك من الألوان و ان عددها مائتا جبل و نيف[12]" .

إن في قول المسعودي " وقد ذكر بطليموس في كتابه المعروف بجغرافيا " شبه إطمئنان إلى ما نقله بطليموس و هذا مغاير لقوله " وقد زعم بطليموس". و ذكر سعة محيط الأرض و قطرها و هذا ما لايعقل ان بطليموس إستطاع معرفته بصورة صحيحة . ان الحذر و الدقة اللذين اظهرهما المسعودي تجاه رأي بطليموس في محيط الأرض و قطرها تدل على وعي علمي مما دفع جاك رسلر إلى القول : يجب ألا ننسى ان العرب ترجموا كتاب بطليموس و صححوا كثيرا من أخطائه و ان أستاذ أوربا المعتمد في الجغرافية ليس بطليموس و إنما الإدريسي [13] .

4- النقد العلمي

من أسس البحث العلمي عند المسعودي أنه ينتقد أحيانا المادة العلمية ليرى إن كانت تنسجم مع ما لديه من معلومات تأريخية أو جغرافية أو انها حائزة عن الصحة العلمية أو المنطقية ، و من ذلك:نقده للجاحظ لظنه ان نهر مهران في الهند و نهر النيل يتصلان بمنبع واحد . و كان دليل الجاحظ انهما يحتويان على تماسيح و انهما يفيضان في وقت واحد و لذلك إنتقده المسعودي إنتقادا عنيفا لتركه المشاهدة و إنجرافه وراء ما يقال أو ما يكتبه الوراقون فقال : وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحرالجاحظ في كتابه (الأخبار عن الأمصار و عجائب البلدان) ان مخرج نهر مهران (الذي هو نهر السند) و النيل من موضع واحد و إستدل على ذلك بإتفاق زيادتهما و كون التمساح فيهما و ان سبل زراعتهم في البلدين واحد و لا أدري كيف وقع له ذلك إذ توجد التماسيح في أكثر أخوار الهند و هي الخلجانات كخور صندابور و خلجان النرابج و غيرها و تلحق الناس و سائر الحيوانات الأذية على حسب ما يلحق أهل مصر و حيواناتهم[14] .

هذا ما ورد في أحد نسخ (التنبيه و الأشراف) من نقد للجاحظ في كون التماسيح موجودة في أكثر الأنهار و منها أنهار الهند وفي نسخة اخرى من هذا الكتاب تختلف محتوياتها بعض الإختلاف قال المسعودي إن الجاحظ ذكر ذلك في كتابه (الأمصار) وهو كتاب في نهاية الغثاثة لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا يعرف المسالك و الأمصار و انه نقل من كتب الوراقين[15] .

و نقد الجاحظ فيما ذكره عن الكركدن فقال : وقد زعم الجاحظ مرة اخرى أن الكركدن يُحمل في بطن أمه سبع سنين و أنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يُدخل رأسه في بطنها . و هذا قول أورده في كتاب (الحيوان) على طريق الحكاية و التعجب فبعثني هذا الوصف على مساءلة من سلك تلك الديار من أهل سيراف و عمان و من رأيت بأرض الهند من التجار فكل تعجب من قوله إذا أخبرته بما عندي من هذا و سألته عنه و يخبروننني أن حمله و فضاله كالبقر و الجواميس و لست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ من كتاب نقلها أم أخبره بها[16] .

و لكن المسعودي الذي ظهر من بعض أخباره أنه يمحص المعلومات و ينقدها فاتت على محكه هذا بعض الأخبار التي وضعت على سبيل التندر وإثارة العجب لدى بعض الناس فقد زعم هو عن الكركدن أو النشان كما يسميه هو فقال : و هذا النوع من الحيوان وهو النشان يكون في أكثر غابات الهند إلا أنه في مملكة رهمن أكثر و قرونه أصفى و أحسن و ذلك ان قرنه أبيض و في وسطه صورة سوداء في ذلك البياض إما صورة إنسان أو صورة طاووس بتخطيطه و شكله أو صورة سمكة أو صورته في نفسه أو صورة نوع من الحيوان مما يوجد في تلك الديار فينشر هذا القرن و تتخذ منه المناطق و السيور على صورة الحلية من الذهب[17] .

و الظاهر ان مسألة الصورة على قرون الكركدن من الأوهام الشعبية التي صدقها المسعودي فلا يوجد حيوان على قرنه صورة رسمت بصورة فطرية و لو كان هذا ممكننا لوجد على قرون الظباء فهو بها أليق . أما هرب الحيوانات في الغابة من بعضها وهو ما ذكره الجاحظ و المسعودي فليس من الكركدن وحده و إنما الحيوانات الصغيرة تهرب عادة من الحيوانالت الكبيرة طلبا للسلامة. و الكركدن ، بصورة خاصة ، ليس من الحيوانات المفترسة ولا يطارد الحيوانات الصغيرة ليأكلها فهو من آكلات النبات و ما ذكره الجاحظ و المسعودي من فزع الحيوانات من الكركدن أمر مبالغ فيه .

5- خصائص طريقة المسعودي أو إسلوبه في التأليف

يذكر المسعودي عادة المعلومات الجغرافية مندمجة أحيانا مع الموضوعات التأريخية في كتاب واحد . أما الآخرون فقد إهتموا بالموضوعات الجغرافية و التأريخية لكنهم فصلوا بينها كاليعقوبي مثلا . فقد كتب كتابا في التأريخ العام و كتابا في الجغرافية هو كتاب(البلدان) ، و كذلك أبو زيد أحمد بن سهيل البلخي صاحب كتاب(البدء و التأريخ)و كتاب في الجغرافية هو(صورة الأقاليم) ، و إختلف المسعودي عنهما بكونه

المؤرخ الذي ينظر إلى الأحداث و يدونها ولا يغفل عن طرفها الجغرافي وهو بصفته هذه ، كما يرى علي أدهم ، يشبه هيرودوت من مؤرخي اليونان[18] .

وقد جاء عن هيرودوت في دائرة المعارف الحديثة أنه كتب في تأريخ و جغرافية و تقاليد مصر و ليديا و سبأ و آشور و اليونان و فارس [19] . و فيما تقدم أشرنا أن الإعتماد الأول للمسعودي كان على ما لديه من كتب ، أما مصدره الثاني فهو أسفاره الواسعة قام بها لغرضين أولهما أن يتأكد من المعلومات التي إستقاها من الكتب . و ثانيهما أن يُضيف إليها مادة جديدة ، علما أن أسفاره الواسعة إستغرقت ست و ثلاثين سنةو قال عنها جرجي زيدان : طاف فارس و كرمان سنة 309هـ حتى إستقر في إصطخر. و في السنة التالية قصد الهند إلى ملتان و المنصورة ثم إنعطف إلى كنباية فعيمور فسرنديب ، و من هناك ركب البحر إلى بلاد الصين و كان البحر الهندي إلى مداغسكر و عاد إلى عمان . و رحل رحلة اخرى سنة 314هـ إلى ما وراء أذربيجان و جرجان ثم إلى الشام و فلسطين . و في سنة 332هـ جاء انطاكية و الثغور الشامية إلى دمشق ، و إستقر أخيرا بمصر و نزل الفسطاط سنة 345هـ و توفي في السنة التالية[20] .

و المسعودي يختلف في معلوماته التأريخية عن اليعقوبي لأن اليعقوبي لم يسافر و إنما كان يسأل الأجانب إذا لقيهم عما في بلادهم من الأرض و الأنهار و الأشجار و الحيوانات و غيرها ، و بهذه الوسيلة يجمع مادته الجغرافية عن كل قطر ، و في كل سنة يزداد ما يجمعه عن كل قطر بالإضافة المستمرة . لكن المسعودي إغترب طلبا للمعلومات و شاهد الناس في أوطانهم المختلفة و خالطهم ففهم عقائدهم و أجناسهم و طرق حياتهم و معيشتهم و تعرض لمعاناة و متاعب كثيرة لكنها لم تثنه عن طلب العلم . وقد أشار إلى هذه الناحية المستشرق الألماني آدم ميتز و قال : على ان المسعودي الذي ألف حوالي عام 332هـ / 944م لم يفعل من ذلك أكثر مما فعله اليعقوبي مع ان حبه للإستطلاع حمله إلى بلاد بعيدة في أفريقية و الصين و لكنه تكلم في كتبه التأريخية عن كثير مما لقيه من التجارب و المشاهدات في أسفاره و هذا ما تجنبه اليعقوبي و تحاشاه تحاشيا تاما[21] .

و المسعودي لم يُخف ما عاناه في أسفاره الشاقة وإستخدمها عذرا لما قد يوجد في كتبه من مآخذ أو تقصير فقال : على إنا نعتذرمن تقصير إن كان و نتنصل من إغفال إن عرض لما قد شاب خواطرنا و غمر قلوبنا من تقاذف الأسفار و قطع القفار تارة على متن البحر و تارة على ظهر البر مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأقاليمك بالمعاينة كقطعنا بلاد السند و الزنج و الصين و البرنج (لعلها بلاد الفرنج) و تقحمنا الشرق و الغرب فتارة بأقصى خراسان و تارة بوسائط أرمينية و أذربيجان و الران(ربما يقصد الراين بألمانيا) و البلقان و طورا بالعراق و طورا بالشام فسيري بالآفاق سير الشمس في الإشراق و كما قال بعضهم :

نيَمم أقطار البلاد فتارة لدى شرقها الأقصى و طورا إلى الغرب
سرى الشمس لاينفك تقذفه النوى إلى أفق ناءٍ يقصر بالركب

و يقول في كتاب آخرحول قيمة تحصيل المعرفة المباشرة و مشقة تحصيلها : بكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله و ليس من لزم جهة وطنه و قنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسَم عمره على قطع الأقطار و زرع أيامه بين تفاوت الأسفار و إستخراج كل دقيق من معدنه و إثارة كل نفيس من مكمنه لغيره[22] .
وهو بعد هذا الإعتذار و الإشادة بقيمة الخبرة المحصلة من الإرتحال و الإغتراب يلقي اللوم على السفر الذي قد يسبب الغفلة و السهو في التأليف ثم يتمثل ببعض الشعر لأبي تمام :

خليفة الخضر من يتربع على وطن في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشام قومي و بغداد الهوى و أنا بالرفتمين و بالفسطاط إخواني[23]

6- الإستجواب و الأسفار

من وسائل المسعودي في جمع المعلومات الجغرافية إتباعه إسلوب الأسئلة و الإستفسار من الأجانب عن شؤون مختلفة في بلادهم و لاسيما الأمور الجغرافية و سبب إستعمال هذا الإسلوب أنه لم يستطع الوصول إلى كل بلد رغب في ذكره في كتبه . و إسلوب الأسئلة و الإستفسار إسلوب صحيح خاصة إذا كان الشخص الذي يُستفسر منه من أهل الثقافة و الوعي و مُقدر للمسؤلية العلمية المتضمنة في إجابته .و المسعودي و إن كان قد تغرب و عانى المشاق في أسفاره الطويلة إلا انه إستفاد ، و إن كان بصورة محدودة ، من الإستفسار من الأجانب الذين يصادفهم . و ذكر ذلك حين قال : إنه رأى رجلا أجنبيا يقيم بالواحات و جده بباب الاخشيد محمد بن طغج و ذلك سنة 330هـ قال فسألته عن كثير منت أخبار بلادهم و ما إحتجت أن أعلمه من خواص أرضهم و كذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات عن أصل بلادهم و أخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من الشب و أنواع الزاج و ما يُحمل من بلادهم بأرضهم من أنواع العيون الحامضة و غير ذلك من المياه المختلفة الطعوم[24] .
وطريقة الإستفسار و الإستجواب هذه طريقة مفيدة إستخدمها المؤرخون و الجغرافيون فيروي الإصطخري : أنه عرف من رجل كان يحطب بمدينة البلغار أن الليل عندهم يقصر في الصيف بحيث لا يتهيأ للإنسان أن يسير فيه أكثر من فرسخ و في الشتاء يقصر النهار و يطول الليل حتى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف[25] .
تعد المعلومات المستقاة من الأسئلة مكملة أو مساعدة للمعلومات التي إستقاها المسعودي من المصادر و الأسفار بالمعاينة . و من الواضح وجود إختلاف بين مشاهدات المسعودي و مشاهدات المقدسي و إبن حوقل ، و كلاهما كالمسعودي من جغرافي القرن الرابع الهجري لكنهما لم يتعرضا لوصف بلاد غير المسلمين . أما المسعودي فهو جغرافي واسع الأفق دخل بلادا كثيرة على الرغم من انها غير إسلامية . و في ذلك يقول آدم ميتز : يعترف المقدسي بأنه لم يتكلف وصف ممالك الكفار لأنه

لم يدخلها و لم يذكر مواضع المسلمين منها و كان عدم وصوله كافيا في منعه من التعرض لوصفها لأنه كان يجعل المشاهدة و معاينة ما يريد الكلام عنه أول دعامة لكتابه[26] .

الهوامش

(1) Chambers Twentieth Century Dictionary ,1946 ,p.382 .

(2)ميتز ، آدم ،الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ، (بيروت ، 1967) ص، 17 .
(3)زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال ، 1911 ، ج 3 ، ص 114 .
(4)المصدر نفسه .
(5)إبن خلدون ، المقدمة ، (بيروت ، 1974) ، اوفسيت ، (بغداد ، ب.ت) ، ص 32 .
(6)العزاوي ، عبد الرحمن حسين ، المسعودي مؤرخا ، منشورات إتحاد المؤرخين العرب ، (بغداد ، 1983)
ص ، 29- 31 .
(7) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب و معادن الجوهر ، تحقيق الخربوطلي ،دمشق ،ج، 4 ، ص 306.
(8) المصدر نفسه ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،(القاهرة ، 1964) ، ج 1 ، ص 18.
(9)العزاوي ، المصدر السابق ، 91-92.
(10)المسعودي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 17.
(11)المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 91.
(12)المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 88.
(13)رسلر ، جاك ، الحضارة العربية ، (باريس ، 1955) ، ص 156.
(14)المسعودي ، التنبيه و الأشراف ، تحقيق و تصحيح عبداله إسماعيل الصاوي ،ص 49 .
(15)المسعودي ، التنبيه ..، تحقيق الخربوطلي نقلا عن كتاب عبد الرحمن العزاوي (المسعودي مؤرخا) ، ص
112- 113.
(16)المسعودي ، مروج الذهب ... ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ،ج 1 ،ص 172.
(17)المصدر نفسه.
(18)أدهم ، علي ، بعض مؤرخي الإسلام ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، (لبنان، 1974) ، ص64.
(19)The New Modern Encyclopedia , (A.H.MC Donnald "editor"),(NewYork,1946),P.450 .

(20)زيدان ، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ، (القاهرة ، 1911) ، ج 2 ، 316.
(21)ميتز ، المصدر السابق ، ص 10.
(22)المسعودي ، مقدمة مروج الذهب ... تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ص12.

(23)ديوان أبي تمام .
(24)المسعودي ، مروج الذهب ...تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج 1 ، ص 4.
(25)ميتز ، المصدر السابق ، ص 15.
(26)المصدر نفسه ، ص 11 .